

أمريكا والحرب على الإرهاب

2003/09/12

اتجهت الإدارة الأمريكية منذ الحادي عشر من أيلول عام 2001 إلى رفع شعار محاربة الإرهاب، وتحميل الإسلام والمسلمين عامة المسؤولية الكاملة عن النشاطات الإرهابية الدولية، واتهام العديد من المنظمات الإسلامية الخيرية بدعم العمليات الإرهابية وتمويل الجماعات التي تمارس الإرهاب. ومن أجل إضفاء شرعية دولية وقانونية على سياسات محاربة الإرهاب كما رسمتها أمريكا وقامت بتطبيقها على أرض الواقع، قامت إدارة الرئيس بوش بإقناع غالبية الدول الأوروبية ومنظمة هيئة الأمم المتحدة بتبني نفس السياسات، والوقوف في الصف المعادي للعمليات الإرهابية والفكر الإسلامي السياسي بوجه عام. وهذا دفع التحالف الغربي عامة إلى تصنيف بعض حركات المقاومة الوطنية المشروعة إلى منظمات إرهابية والعمل على عزلها سياسيا ودوليا، وحرمان الكثير من منظمات المجتمع المدني ذات الميول الإسلامية من جمع الأموال لممارسة نشاطاتها الخيرية.

إلى جانب ذلك، قامت أمريكا وحلفائها في الحرب على الإرهاب بالضغط على الدول العربية والإسلامية وإجبار بعضها على الانضمام للحملة ضد الإرهاب، والعمل على تجفيف المصادر المالية للمنظمات الإسلامية التي يشتبه في تأييدها للإرهاب وتعاطفها مع القائمين عليه. لكن دول الغرب لم تحاول في أي وقت من الأوقات تحديد مفهوم واضح للإرهاب يجعل بالإمكان التفرقة بين العمليات الإرهابية غير المشروعة ضد الأبرياء وعمليات المقاومة الوطنية المشروعة ضد قوى الاحتلال والطغيان الأجنبية. وفي الواقع، جاءت أحداث الحادي عشر من أيلول لتظهر أن الدول الغربية عامة، وأمريكا خاصة، لم تكن معنية كثيرا بحقوق الشعوب المضطهدة في الحرية والتحرير ومقاومة قوى الاحتلال الأجنبية. ولذلك اتجهت تلك الدول بقيادة أمريكا إلى الخلط المتعمد بين مفهومي الإرهاب والمقاومة، وذلك على ما يبدو من أجل تجريم وتحريم كل عمليات المقاومة المشروعة باعتبارها عمليات إرهابية.

وفي بداية الحملة العسكرية في الحرب على الإرهاب قامت أمريكا بتوجيه التهم للعرب والمسلمين عامة بكراهية الغرب والعمل على تدمير حضارته وطريقته حياته، ورفع شعار "لماذا يكرهوننا" كجزء من حملة إعلامية ونفسية ضد العرب والمسلمين من ناحية، ومن أجل ضمان تأييد الرأي العام الغربي للحرب الأمريكية من ناحية ثانية. ولقد كان غزو أفغانستان بداية لحرب طويلة ومميرة ضد العرب والمسلمين، وذلك على الرغم من قيام الكثيرين منهم بإدانة العمليات الإرهابية التي وقعت في مدينتي نيويورك وواشنطن في سبتمبر عام 2001، واتجاههم إلى رفض فلسفة القاعدة وممارساتها على الأرض. إن حملة أمريكا على الإرهاب لم تتوقف عند حدود أفغانستان بل اتسعت لتشمل العراق الذي غزته أمريكا في عام 2003 على الرغم من معارضة هيئة الأمم المتحدة ورفضها إضفاء شرعية دولية على العدوان. ولقد جاءت الحرب الإسرائيلية على لبنان في تموز 2006 لتكشف الوجه الحقيقي لخطط الأمريكية المعادية لحرية الشعوب العربية والمناوئة لكل مفاهيم ومنظمات المقاومة الشعبية.

إن استمرار العدوان الأمريكي على العرب والمسلمين وزيادة حدة العمليات العسكرية والجرائم الإنسانية والأخلاقية التي ارتكبت بحقهم في العراق وفلسطين ولبنان كان سببا في تصاعد موجة العداء لأمريكا، سياسة وثقافة ومصالح، وتنامي كراهية العرب والمسلمين عامة للسياسة الأمريكية، ورفضهم لخططها وأطماعها في المنطقة العربية. وعلى الرغم من قيام إدارة الرئيس بوش بحملة إعلامية ودبلوماسية مكثفة ومكلفة لتحسين صورة أمريكا في البلاد العربية والإسلامية، إلا أن الجهود الأمريكية باءت بالفشل، بل وساهمت أيضا في تعميق الشكوك في مصداقية بوش وعقلانية سياساته. ومن العوامل التي ساهمت في تعميق تلك الشكوك، اتجاه الرئيس بوش إلى استخدام عبارات عدائية تفتقر إلى الذكاء والحساسية مثل عباراتي الحرب الصليبية والإسلام الفاشي، وتناقض أقواله مع أفعاله، وعدم التزامه بما يصدر عن إدارته ورجاله من تصريحات، خاصة فيما يتعلق بقضية فلسطين وحقوق شعبها المحتل.

نتيجة لذلك زادت أعداد وحدة العمليات الإرهابية بدلا من أن تتراجع، وأصبح العراق، كما اعترفت الإدارة الأمريكية نفسها، بؤرة إرهاب ومعسكرا لتدريب الإرهابيين، وعنوانا لكل من يرغب في الانضمام لصفوف القوى الملتزمة بمحاربة الاحتلال ومقاومة سياسية الهيمنة الأمريكية. ويمكن القول أن استمرار الحرب على العراق، وكشف العديد من الجرائم والأسرار المتعلقة بها كالتخطيط لغزو العراق قبل وقوع أحداث سبتمبر الإرهابية بسنوات والاعتراف بأن الرئيس العراقي السابق صدام حسين لم يكن على علاقة

بتنظيم القاعدة، وتفاقم المجازر الإسرائيلية في فلسطين بدعم عسكري ودبلوماسي أمريكي، وانحياز أمريكا الكامل لحرب إسرائيل على لبنان، تعتبر أهم العوامل المسئولة عن تعميق فجوة الشك والكرهية بين العرب والأمريكيين.

وفي ضوء هذه التطورات لم يعد بالإمكان خلق قنوات حوار فعالة في مقدورها إعادة بناء جسور الثقة التي دمرتها إدارة الرئيس بوش بالكامل، مما ساهم في زيادة تعاطف الجماهير الإسلامية عامة والعربية خاصة مع المنظمات التي تعمل على نشر ثقافة المقاومة... مقاومة الهيمنة الأمريكية، وسياسة الاحتلال والاستيطان الإسرائيلية، ومفاهيم العولمة الاقتصادية والثقافية. وبسبب غياب القوى الشعبية القومية والديمقراطية المنظمة، وخضوع أنظمة الحكم العربية للضغوط الأمريكية، وضعف منظمات المجتمع المدني والمثقفين عامة، فإن منظمات المقاومة الإسلامية التي تجسد الإسلام السياسي استولت على قيادة عمليات المقاومة، العسكرية منها وغير العسكرية.

وما أن بدأت الحرب الإسرائيلية على لبنان في شهر تموز الماضي حتى قامت الكثير من الدول الأوروبية والعربية بتحميل حزب الله المسؤولية عن الحرب، والتحرك الواعي في اتجاه القضاء على ثقافة المقاومة حيث وجدت. لكن الشعوب المغلوبة على أمرها لم تجد في ضوء استمرار الظلم وسياسات الاستبداد الداخلية والخارجية بديلا للإسلام السياسي الذي يقول ببساطة: "الإسلام هو الحل". وحيث أن نظم الحكم العربية لا تقوى على مواجهة التيارات الإسلامية خشية أن تتهم بمعاداة الإسلام، فإن غالبية تلك النظم اتجهت إلى منافسة المنظمات الإسلامية في قيادة عمليات التثقيف التي تقوم على الدين، وهي عمليات تقوم بتوجيه العقل في اتجاه التزمت والانغلاق، ولا يمكن التحكم في تبعاتها السياسية أو الاجتماعية. وهكذا تساهم أمريكا وحربها على الإرهاب في زيادة حدة الإرهاب، وتعميق الكراهية المتبادلة بين العرب وأمريكا، واتساع نفوذ المنظمات الإسلامية، وانتشار الفكر الديني المتزمت، وتراجع دور العلم والمثقفين في الحياة العربية عامة.